ملف مدينة الصدر.. آلام واحزان

مدينة يستبيحها السلاح والموت نهاراً وتتوسّد آلامها واحزانها ليلاً

منذ ان انشا الزعيم عبد الكريم قاسم عام ١٩٦١، بعد ان هالته حياة البؤس والفقر التي يحياها سكان الاكواخ انتشرت في اطراف بغداد (الشاكرية والعاصمة) (خلف السدة) وفي جسر الخر وراحت تتسع تدريجياً، كلما ازداد عدد الهاربين اليها من بطش الاقطاع وخيزرانة "السركال" ونفاق "الشحنة"، او قل منذ ان اطيح بالزعيم الشهيد في انقلاب شباط الاسود، وحتى اليوم كانت "الثورة اولاً" ثم الرافدين. واسبغ عليها الطاغية بمكارمه فاطلق عليها اسمه، وبعد سقوط الصنم اختار لها ابناؤها اسم "مدينة الصدر" تيمناً باسم الشهيد آية اللّه العظمى محمد صادق الصدر،

، منذ ذلك اليوم وهي مثار حقد وغضب الانظمة الاستبدادية التي تعاقبت على حكم العراق الا ان سلطة البعث الجائرة ناصبتها العداء لاكثر من ثلاثة عقود لا لسبب سوى كون اهلها فقراء، يوصلون الليل بالنهار من اجل تحصيل لقمة العيش.

في بداية عام ١٩٧٩، تعطف الديكتاتور على هذه المدينة المكابرة وأمر بتبليط بعضا من شوارعها ، ومد شبكة بدائية للصرف الصحي، ثم ما لبث حتى زج بأبنائها في أتون حروبه العبثية ، فالتهم هذا الاتون مئات الآلاف من خيرة شبابها حتى كهولها، وبعد هزيمته في حربه الفانية ، راحت زمرة تطارد الرافضين والمعارضين لسلطانه المتجبر ، فأعدم من أعدم، وغيب من غيب ، وسجن من سجن، فضجت المدينة واترعت بالارامل واليتامى والثكالى والمفجوعين بابنائهم، اذن، هي مدينة الالم والحزن والانين، ومدينة بلا حلم ، هكذا ينظر اليها أبناؤها ، اذ لاتزال تعيش على وقع المشكلات اليومية محرومة من أبسط مقومات المدن العصرية ، وفي ظل ارهاصات وتداعيات يتلبسها الخطر الداهم كل ثانية من ثواني دقائق ساعاتها العصيبة.

، ولنعد الى البداية مرة اخرى، فما بين عامي (١٩٦٣ ،١٩٦٤) ، قررت حكومة عبد السلام عارف ترحيل سكان الاكواخ قسراً، أذ كان من المقرر أن يستكمل مشروع الزعيم جميع إجراءاته في بناء القطع السكنية التي وزعت على مواطني "الشاكرية والعاصمة وجسر الخر، الا ان هذا المشروع لم ير النور بعدما اطيح بصاحبه وبسبب هذا الاجراء كابد المواطنون حياة قاسية، وعانوا من شظف العيش كثيراً وابرز مفردات هذه المكابدة، عدم توفر الماء وغياب الخدمات ، واستمرت المأساة حتى عام ١٩٦٦ حين باشرت حكومة عبد الرحمن عارف، بنصب شبكة مياه الشرب وتبليط الشارعين الرئيسيين فيها وهما، شارع الداخل والجوادر، وفي محاولة منه لطمس اسم ثورة ١٤ تموز، وقائدها استبدل اسمها وسماها "الرافدين" ولتجميل صورته امام اهل المدينة الذين احبوا عبد الكريم قاسم حتى العشق وعدم تصديق نبأ موته، قامت وحدات الجهد الهندسي العسكري ببناء (٨٠) داراً سكنية قرب مستشفى الجوادر (الامام علي ع) حالياً وزعت على بعض موظفي دوائر الدولة. سميت في حينها باسم شارع كاظم، وسميت باسم الجوادر لوجود خيام وحدة الجهد الهندسي العسكري فيها، وبهذا الصدد يقول المدرس المتقاعد "فاخر زغير" ان اسماء المحلات السكنية والشوارع والاسواق جاءت بحسب المناطق التي انتقل منها الاهالي ، فمثلاً منطقة الكيارة هي تسمية لحي سكني في الشاكرية ومثلها منطقة "خان حجي محسن" التي كانت موجودة في الكسرة ، ومقهى "خنتاب" وهي من اقدم مقاهي المدينة، وكانت اصلاً موجودة في مدخل الشاكرية، وساحة مظفر ، نسبة الى عيادة الدكتور "مظفر النواب" الذي كان يكشف على مرضى المدينة مجاناً ، ومنطقة "الداخل" كونها تمثل "مدخل المدينة" ومنطقة الشركة نسبة الى الشركة التي كانت تنقب عن النفط في المنطقة، اما سوق مريدي، الذي يعد من اقدم اسواقها واهمها تجارياً واكثرها شهرة ، كونه عبارة عن مجموعة من الاسواق المتخصصة. اما كيف سمي بـ (مريدي) فتلك قصة اخرى لامجال لذكرها الان.

مدينة بلا حلم

(المدى) تجولت في بعض احيائها وازقتها وشوارعها المكتظة بالسكان والنفايات حتى السأم واطلعت على حالها واحوال اهلها وهي تعيش موجة الكوابيس في الليل والنهار ويكتنفها الخطر من كل صوب جراء الاحداث الاخيرة وهي تواجه الموت مرتين كل يوم ، مرة في النهار واخرى في الليل، مواجهات واشتباكات مسلحة، وقذائف هاونات طائشة ، وعبوات ناسفة وقصف جوي، وانهمارات لرصاص لايستدل على هدفه.

التقينا اولا المعلم "ستار رحيم الكعبي" الذي حدثنا قائلاً بعد ان تنهد وسحب نفساً عميقاً من سيكارته: الاحوال في "مدينة الصدر" لاتسر العدو ولا الصديق فالبؤس والفقر زائران ما برحا مكانهما منذ عام ١٩٦٣ حتى اليوم ، وزاد في قسوتهما مايجري، الآن من اعمال عنفية تمظهرت بالاشتباكات المسلحة التي ما انفكت تحاصر الناس بالموت والدمار، مساكن مدمرة اسواق مغلقة ، مدارس آثرت هيئاتها التعليمية والتدريسية إقفالها خشية على طلبتها وتلامذتها من ان تنال منهم رصاصة او قذيفة هاون، او إطلاقة قناص ، او إنفجار عبوة ناسفة.

ويضيف: قد لاتصدق لو قلت لك ان جاراً يعمل كاسباً لم يدخل بيته دينار واحد منذ بدء الاحداث حتى اليوم، ففطور عياله اقتصر على الخبز والشاي فقط، وكذلك هو غذاؤهم وعشاؤهم ولاتستغرب لو قلت لك ان مدينة الصدر هي مدينة بلا حلم.

نفايات، نفايات ، نفايات

اينما يمّمت وجهك في مدينة الصدر ستواجهك حتماً تلال من النفايات والازبال ، في قطاع (٧٤) التقينا المواطن "حمزة سلمان جار الله" وسألناه عن هذه النفايات فقال: كان الله في عيون ابناء مدينة الصدر على هذه البلوى، وعلى هذه المعاناة ، لا اظن ان مدينة من مدن العالم تقاسي ما تقاسيه مدينتنا ، فهي مهملة بشكل لايصدق ، لا ادري هل هذا الاهمال مقصود، أم غير مقصود بسبب الاوضاع الامنية المتردية في المدينة؟ اين الحكومة؟ اين الدولة التي من المفروض منها ان تكون راعية لجميع ابناء الشعب العراقي ، اين المجلس البلدي؟ وبمرارة يقول: ربما قدرنا هو الذي جعلنا نعيش بين النفايات والانقاض ومايخلفه الانسان من ركامات غذائه وطرائق عيشه، ويوضح: انا اعمل صباغاً للابنية ، مضى علي اكثر من ثلاثة اسابيع وانا عاطل عن العمل ، بفعل الاجراءات الامنية المشددة ومنع سير المركبات والدراجات النارية والهوائية وغلف معظم منافذ المدينة، اذ لايسمح بالمرور الا للسابلة فقط، وهذا يتسبب في ارهاق المواطن، وتحميله اكثر مما يطيق في الذهاب والاياب ، ويستطرد قائلاً: نحن نعيش حالات من الرعب والخوف حتى ان كنا في بيوتنا (لانهارنا نهار، ولا ليلنا ليل) ،ويتساءل متى تنتهي هذه الحال؟ ومتى نعود الى مزاولة اعمالنا بحرية؟ ومتى نستطيع تحصيل رزقنا من دون خوف؟ اناشد الحكومة والدولة بايجاد حلول عاجلة لمشكلاتنا ومصائبنا وويلاتنا والآمنا وأحزاننا ، وعليهم الايفاء بعهودهم التي قطعوها لنا.

المواطن "علي شعلان علي" يقطن القطاع (٥٨) سألناه : كيف تجد الواقع الخدمي بعد حصار المدينة؟ فقال: انقطاع تام في التيار الكهربائي والخدمات بائسة اذ تشهد شوارع المدنية تكدس النفايات وطفح المجاري في بعض الاماكن ، فضلا عن إغلاق الاسواق الشعبية وصعوبة الحصول على المواد الغذائية والخضراوات ناهيك عن معاناة المواطنين، الباحثين عن ارزاقهم جراء عدم توفر وسائط النقل وغلق السوق الرئيس في منطقة جميلة وتوقف تام لكل الانشطة الحياتية والكثير من المدارس ، اغلقت ابوابها جراء العمليات العسكرية والقصف العشوائي مع انتشار زرع العبوات في معظم شوارع المدينة وخاصة تلك الفاصلة بين القطاعات وقناصي القوات المتعددة الجنسية والمشتركة وعدم توفر الوقود بسبب اغلاق محطات التعبئة.

اما الحديث عن متحصلي ارزاقهم اليومية، لهو حديث ذو شجون فالكثير من العوائل تعتاش على العمل اليومي ، وهي الآن بلا مورد رزق اذ يتعذر عليهم الوصول الى اماكن عملهم، لان معظم الناس هم من الكادحين والعاملين في الاسواق الشعبية او بين القطاعات ، اما عن الواقع الصحي فعلى الرغم من وجود المستشفيات العاملة التي تشكو نقص الملاكات الطبية والخدمية ، فضلاً عن اغلاق العيادات الخاصة والصيدليات ، ما ادى الى معاناة كبيرة لاولئك المصابين بالامراض المزمنة.

المواطن صادق حسن ، يسكن في القطاع نفسه يقول: الكثير من العوائل نزحت من المدينة باتجاه مناطق عديدة من بغداد ، خشية القصف الجوي والقناصين وسقوط قذائف الهاون على المنازل الذي ادى الى سقوط ضحايا بين المواطنين الابرياء وهدم الكثير من المنازل في قطاعات (١ و٨ و ٩ و١٠ و١١ و ٥٨)وقطاعات (٧٠ و ٧١ و٧٢ و٧٣ و٧٤)، وفي مداخلة للمواطن "صالح الساعدي" قال فيها اليوم اغلقت ساحة مظفر وساحة ٥٥ ما اضطر المواطنين المتوجهين الى اعمالهم في العودة الى منازلهم وهذه معاناة مضافة الى هموم ابناء مدينة الصدر، ويضيف لانبخس وزارة التجارة حقها فمعظم مفردات البطاقة التموينية جهزت الى الوكلاء في المدينة. اما وضع الطاقة الكهربائية فهو بائس بسبب تضرر الاعمدة الكهربائية والاسلاك الناقلة نتيجة المواجهات العنيفة واطلاق النار العشوائي ويوضح: وبسبب تردي الخدمات الصحية وطفح المجاري فقد انتشرت بعض الامراض الجلدية التي اصيب بها الاطفال والنساء، اللواتي كن الاكثر تعرضاً لها، ويشير الى ان بعض المواطنين الجرحى جراء المواجهات المسلحة يتخوفون من مراجعة المستشفيات لئلا يحسبون من المسلحين فيلقى القبض عليهم، ما تسبب في الحاق اضرار كبيرة بالجرحى، كقطع السائق ، وان احد المواطنين اصيبت احدى عينيه ، وبسبب الاوضاع المتردية آثر المعالجة في منزله من دون الذهاب الى مستشفى "بن الهيثم" وعلى العموم فإن المدينة تعيش مأساة انسانية فريدة وهي في رعب دائم ، وليلها طويل متربع بالالم والخوف والانين، ويقول: نناشد الحكومة ورئاسة الجمهورية والبرلمان بإنهاء ازمة مدينة الصدر وايجاد الحلول المناسبة لأن المتضرر الوحيد هو المواطن البريء والفقراء من ابنائها.

المواطن "علي شنين" يسكن في منطقة شارع الفلاح قال: أعمل مصلحاً لأبواب المحال من النوع اللولبي، ومنذ اكثر من ثلاثة اسابيع وانا بلا عمل ، والذي ادخرته من عملي قبل الاحداث انفقته بالكامل علماً انني متزوج ولي طفلان واخوة يتامى اذ توفي والدي منذ ثلاث سنوات ، فكيف يتسنى لي والحالة هذه ان اعيل هذه الاسرة المكونة من ثمانية افراد؟ ويبين : الشوارع مغلقة، حتى اننا لانستطيع الوصول الى ساحة "مظفر" ولا أقوى على المسير لمسافات طويلة، وانا أحمل عدة عملي الثقيلة ، ناهيك عن اغلاق المدارس وتردي الخدمات البلدية ، وعدم توفر المحروقات "المشتقات النفطية" ، ويضيف: في بيتنا شجرة كالبتوس ، بدأت بقطع أغصانها لأغراض الطبخ، وربما سأضطر ذات يوم الى قطع جذعها والإفادة منه في توفير الحطب الذي نستخدمه في التنور والمطبخ، في هذه الاثناء حاولنا الاتصال بالشيخ "سلمان الفريجي" مدير مكتب الشهيد الصدر في قاطع الرصافة الا اننا لم نفلح في تأمين الاتصال لضعف شبكة الاتصالات.

في مديرية بلدية مدينة الصدر الثانية الكائنة في ساحة "مظفر" التقينا المهندس صباح رئيس قسم الاجازات الذي حدثنا قائلاً: مساحة المدينة تبلغ (٣٠) كيلو متراً مربعاً صممت على هيئة مستطيل طوله ٦,٥ كيلو متر وعرضه (٤) كيلو مترات ، ويشير الى ان الخدمات المقدمة الى المدينة لايمكنها تغيير معالمها بين ليلة وضحاها ، فما بالك والمدينة تعيش اضطراباً واعمالاً مسلحة؟ وانا آمل انهاء حالة التأزم والاحتراب بأقرب فرصة، لاسيما نحن نحتاج الى وقت ، لان المدينة يجب ان تخصص لها موازنة محافظة من حيث وفرة الآليات والملاكات فهي تشتمل على (٧٩) قطاعاً وكل قطاع يحوي مابين (١٠٠٠ . ١٥٠٠) بيت نتيجة الانشطارات الاسرية المستمرة، وهناك مناطق ملحقة بها مثل حي طارق وحي "التنك" والحبيبية وجميلة و٧ قصور وقطاع غير رسمي سكنته بعض العائلات المهجرة من محافظة ديالى (وأبو غريب) يسمى قطاع "٨٠) وكل هذه هي بحاجة الى خدمات واذا احصينا عدد الآليات المتوافرة لدى المديرية فإنها لن تسد حاجات ربع مساحة المدينة ومع كل هذا فقد اكملنا قبل الاحداث الراهنة مجاري اربعة قطاعات هي (٦٥ و٦٨ و٧٤و ٧٧) وكذلك حولنا ساحات كانت مرتعاً لخيول بائعي النفط الى ملاعب رياضية ومتنزهات ، وسيجنا وشجرنا الكثير من الشوارع والساحات وقمنا بتبليط شارع العمال اكثر من مرة، لكن المصفحات والعجلات الامريكية دمرت كل ذلك الجهد.

❖منطقة جميلة..من اين جاء اسمها؟

المواطن سلمان كاصد السويعدي (٧٠) سنة اجاب على سؤالنا بشأن تسمية "جميلة" فقال: في عام ١٩٦٠ زارت العراق المناضلة الجزائرية الاشهر "جميلة بوحيرد" وعند تجوالها في ضواحي بغداد ، وقفت على تلة في هذه المنطقة ، فيما هرع المواطنون لاستقبالها وهم مبهورون بها، ومصفقون لها ومرحبون ، لذلك أطلق الناس عليها اسم "منطقة جميلة" هي الآن من اكبر الاسواق التجارية في عموم العراق ، هذه الاسواق واثناء الاشتبكات الجارية الآن في مدينة الصدر كانت هدفاً لقذائف الهاون التي اشعلت النار في معظم محالها التجارية ومخازنها ، اذ التهمها حريق هائل اتى على اكثر من (١٠٠) محل ومخزن تجاري والى خسارات مادية قدرت بالمليارات من الدنانير.

"احمد شتيوي" تاجر معروف في المنطقة يقول: اكثر من (٨٠٠) مليون دينار اضحت رماداً بفعل قذائف الهاون، على من ألقي بالمسؤولية؟ على المسلحين ام العصابات الاجرامية ام على القوات المشتركة؟ ومن سأطالبه بالتعويض؟ لقد ولجت عالم الإفلاس من ابوابه الواسعة لأنني مدين لشركات تجارية عراقية وغير عراقية بمبالغ تتجاوز المليارين من الدنانير، فحتى لو بعت بيتي فلن استطيع تسديد تلك الديون، ويضيف وقد تحشرجت الكلمات بحنجرته: انا وعائلتي معرضون الآن الى التشرد فمن ينقذنا؟

❖مدينة الألم والمعاناة والحزن والأنين

في مدينة الصدر تترسخ جميع العناوين ، الا عنواناً واحداً لم تستطع الحفاظ عليه ، مع انها كانت في غابر الايام منجماً لانتاج الفرح والموسيقى والطرب والفكر والثقافة والتنوير والفضيلة الا وهو الفرح فالمدينة تسربلت بالسواد وتشربت بالدموع منذ اكثر من ثلاثة عقود وما ناف عليها من سابق الاعوام. هي مدينة المآسي المختلفة ، تلك التي تتجمع تحت عنوان واحد، مدينة لاتعرف الفرح، ربما هجرها ، او هي نبذته بفعل تراكم الاحداث، فالنوادي الثقافية مهجورة والحركة الرياضية متعثرة ، والبناء العشوائي تمتد اذرعه مثل الاخطبوط يعشش فيها الفقر، وتتجذر فيها المعاناة باصرار، مثل صارخ يرد على لسان المواطنة، زهرة دشر قطاع (٧٥) زقاق ١٢ التي قالت: الحصة التموينية هي سبب بقائي وعائلتي على قيد الحياة وفي حالة قطعها أو الغائها ستضيق بنا السبل وسيكون مصيرنا الشقاء والسؤال ، وللتواصل مع العنوان الحركة الثقافية والفنية في المدينة تكاد تقتصر على الاحتفالات والمناسبات الدينية التي تنظمها بعض مراكز الشباب ومهرجانات الشعر، وماينظمه مكتب السيد الشهيد الصدر من محاضرات ولقاءات فكرية تتركز على الجانب الديني حصراً، ولا وجود للمسارح والملتقيات والمنتديات الثقافية التي كانت منتشرة في عقدي الستينيات والسبعينيات.

في هذا الصدد يقول المسرحي والشاعر "نصيف ملك" ان ثلاث مدارس مسرحية كانت تتنافس في مدينة الثورة "الصدر الان" لكل منها نهجها الخاص في اختيار النص والرؤية الاخراجية وطرق التمثيل ، المدرسة الاولى في الداخل وتحديداً "مركز شباب الثورة" حيث المسرحي الراحل "خضير الساري" وطالب الربيعي وفالح الشريفي، اما الثانية فقد تمثلت في مركز شباب الجولان ، حيث عباس الحربي والثالثة تخرجت منها اسماء لامعة، ممثلة بفرقة مسرح الرفض في نادي القدس ، خلف مستشفى الجوادر ، وسميت بالرفض لان جل العاملين فيها كانوا مناوئين لسلطة البعث ومن هذه الاسماء الدكتور عباس جاور وحميد المختار والراحل كريم جثير ، فيصل حامد ، وقاسم مطرود ،وتوفيق التميمي وغيرهم من الرعيل الذي اسس في اوروبا لاحقاً مدارس مسرحية، مرحلة السبعينيات شهدت تنامي تباين فكريين تمثلا في الشيوعيين من جهة وحزب الدعوة من جهة اخرى، وبرغم التناقض الايديولوجي ، الا انهما تناغما بشكل ثقافي حضاري متقدم داخل المدينة، وقد برقت ولمعت اسماء تمثل الان قامات سامقة في فضاءات الثقافة والفكر والفن العراقي امثال: سهيل ياسين ، وحسن الشرع وعبد الرحمن طهمازي وجعفر صادق محمد وعبد الامير الورد، وعبد الاله عبد الرزاق وفوزي كريم وعباس البغدادي، وعلي القيسي وبدرخان السندي وجبار سهم السوداني وحسين الجاف، وخليل ابراهيم النعيمي، وعباس لطيف ، وحميد قاسم وجمال كريم وسيد جبار فرمان، وطالب حسن سعيد وشاكر لعيبي وعلي الفواز وغازي داود الفهد وسعيد شنين وكريم شغيدل وحسام حسن وخالد شاكر وهادي السيد حرز ورحيم كلش وكاظم النصار وتوفيق التميمي وكاظم حسوني وهادي الشاطي والقائمة تطول بالمبدعين في مجالات الثقافة والفن والرياضة في الظرف الراهن، مدينة الصدر لاتعرف الفرح فالموسيقى والغناء غائبان كليا، حتى مراسيم الزفاف ، فأنها خلت حتى من الزغرودة "الهلاهل" ترى من يعيد الى مدينة يقطنها قرابة ثلاثة ملايين عراقي بسمتها ، وفرحها والوانها الزاهية؟ من نزع عنها ثوب الحزن ؟ ومن يؤجج فيها روح الابداع والتألق والنجومية؟ مدينة الصدر، هل ستحظى بمستقبل باهر، لاسيما ان الحكمة تقول: "من المحال دوام الحال"! ان غداً لناظره قريب.